من كتب الشرق والغرب

LA VIE QUOTIDIENNE EN EGYPTE DU TEMPS DES RAMSES

ETIEMBLE

الحياة اليومية فى مصر فى أيام الرماسسة*

بينما ترى الأحقاد الوطنية أو الدينية مفسدة لأكثر كتب التاريخ ، تجد مصر القديمة وقد اكتمل تاريخها اكتمالا بآخر فراعنتها ، فلم يعد فيه ما يثير شيئاً من تلك العواطف القوية التى ما برحت تشوه فى أنظارنا صورة الحروب الصليبية أو صورة الثورات التى ما زلنا نعانى آثارها . فبقدر ما تكون كتابة التاريخ ممكنة يكون التاريخ الصحيح لمصر ممكناً . وإذا حاولت أن أسترجع صورة الحياة الفرعونية بالقياس إلى أولئك الذين لم يدرسوها مثلى إلا فى المدارس الثانوية ، رأيت كهانا بالغى القوة ، وعدة من عجول أبيس ، وأخرى من الجعارين ، ورأيت توت عنخ آمون وقبره الرائع ، والكاتب الجالس القرفصاء وشيخ البلد ، ورأيت طابوراً من الحشرات البشرية يجلد عند قاعدة الأهرام . ثم رأيت أيضاً طائفة من الرسوم الغريبة التى تقوم مقام الكتابة ، ورأيت الثعلب الذئب أنوبيس ، ومسلة الأقصر ، وكلمات عجيبة ، تسر الأطفال مثل كلمة nome وهو المقاطعة ، وكلمة pschent وهو لباس الرأس لذى قدماء المصريين . ويا لهم من قوم أمرهم عجب أولئك المصريين ! إنهم لم يعرفوا رسم النظور . ذلك فى رأى ما يتخيله فرنسى فى الخامسة والعشرين أو فى الثلاثين عندما تكلمه عن خوفو أو رمسيس . فهو يحسب الحضارة المصرية حضارة جامدة ، حضارة كهنوتية . ذلك طابع كل تعليم يهدف إلى التبسيط ، فهو إذ يبسط

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى »

إنما يشوه . ويرجع هذا إلى أن الكتب التى كنا ندرسها منذ ربع قرن لم تكن تعتمد إلا على المعلومات التى وصل إليها العلماء حتى حوالى عام ١٩٠٠ على حين أن تاريخ مصر تاريخ حديث رغم قدم مصر ، تاريخ يتغير كل عشر سنوات .

وبمجرد وصولى إلى هذا البلد ، كشفت لى مصر عن جهلى وأخطائى ومعتقداتى الفاسدة . فما كدت أرى بعض الرسوم من جدران سقارة حتى أدركت أن هناك فنا مصرياً آخر غير ذلك الفن الجامد المنتظم . وقرأت « المسرح المصرى » للدكتور دريوتون فعلمت منه أن التمثيليات الدينية قد وجدت فى مصر قبل اليونان القديمة وأنها شملت كل أنواع التمثيليات الحرة : تمثيليات تاريخية ذات مشهد عظيم مثل « ميلاد هورس وتأليهه » ، وكوميديات صريحة مثل هزيمة أبوفيس وتمثيليات سياسية مثل عودة سيت وهى ذم لاحتلال الفرس . وبدا لى أن ما كان يحدث فى العصور الوسطى الفرنسية ، حين كانت التمثيليات الدينية تمثل فى الكنائس ، من قذف الجمهور ليهوذا بالحجارة ، كان يحدث مثله فى المعابد المصرية حيث تزدحم جماهير الشعب مظهرة غضبها على المحتل ، فأصبح المصريون يعيشون أمامى . وكان الدكتور دريوتون هو أيضاً الذى أظهر لنا عيد الخمر . فبينما يرتعد فرعون أمام هاتور وهو يقدم له جرة النبيذ ، إذا بجمهرة من الناس كانت تقواهم تدفعهم إلى الافراط فى الشراب بل تتطلبه ، وتدع نفسها لسكر النبيذ الذى يسعى بها إلى النجاة . ثم زرت معابد الصعيد والمقابر المحفورة تحت الصخور ، وقرأت كتاب الموتى ، وحفظت بضعة من أسماء الفراعنة ، وبضعة تواريخ وبضعة وقائع . وأدت بى دراسة قواعد اللغة المصرية الكلاسية[1] إلى عالم الكتاب ، وأخذت أقضى بكل سرور بعض الوقت ، من زمن لآخر ، فى استطلاع الحروف الهيروغليفية التى أنشأها شاسينا Chassinat لمطبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة . ورغم ذلك فقد كان هناك شئ ينقصنى ، شئ مهم ، إذ تذكرت الفائدة التى جنيتها ، بالنسبة لثقافتى اللاتينية ، من

(١) E. Lefebvre, *Grammaire de l'Egyptien classique*, Le Caire

اكتشافى فيما بعد لبضع طرق عن المطبخ الرومانى كتبها أبيكيوس Apicius . وكان طعام الباقلا بمزيج الخيانة الزوجية سحر خيالى . وأى كتاب بالغا ما بلغ علمه فى تاريخ اللغة ، أو فى التاريخ أو فى الجغرافيا يستطيع أن يعرف الحضارة الفرنسية ، لوجهل وجود طعام حساء السمك المصنوع بالتوابل (١) لما أو اللحم المطهى بالنبيذ(٢) أو لو جهل الحياة المنزلية الفرنسية ؟

كانت إقامتى فى مصر قد أزالت عنى العبارات المحفوظة عن مصر الجامدة ، الهيراطيقيـة ، التى لا تعرف رسم المنظور . ولكن كيف كان يعيش أناس ذلك الزمن ؟ ماذا يأكلون ؟ ماذا يقولون لنسائهم حين يثيرنهم ؟ وطالما أسفت لعدم استطاعتى أن أرجع إلى كتاب شبيه بكتاب كاركوبينو عن الحياة اليوميـة فى روما(٣) ولم أكن الوحيد فى ذلك الأسف ، فقد كتب لى جان بولان J. Paulhan فى عام ١٩٤٦ يسألنى أن أدله على كتاب عن الحيـاة الخاصـة فى مصر الفرعونية .

وعندئذ علمت أن بيير مونتيه Pierre Montet سيصدر عما قليل كتاباً « عن الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرماسسة » . وليس مونتيه أقل كفاءة أو توفيقاً من زملائه المصرولوجيين الفرنسيين . وكأن المعابد والمقابر تشاركه فيما يبحث عنه . ولقد ظهر أخيراً كتابه وحقق الآمال التى كان يؤملها أمثالى فى كثرة مايستفاد منه .

فالمسكن ، والزمن ، والعائلة ، والمشاغل المنزلية ، والحياة فى الريف ، والفنون والصناعات ، والأسفار ، والفرعون ، والحرب والعيش والكتاب والقضاة ، والنشاط الدينى فى المعابد ، والجنائز ، كل ذلك مدروس فى هذا الكتاب بالدقة التى يسمح بها ما لدينا اليوم من وثائق . ولما كانت الأخلاق والنظم والفنون والمعتقدات قد تطورت خلال آلاف السنين التى نمت فيهـا الحضارة الفرعونية ، فقد اختـار المؤلف حقبة ممتازة من التاريخ المصرى هى عهد الرماسسة الذى يميزه ثلاثة حلول عظام . ستوى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث . فالآثار الضخمة الرائعة ، والعديد من مقابر الملكات والملوك ، وأوراق البردى ،

---

(١) La bouillabaisse

(٢) La daube

(٣) *La vie quotidienne à Rome*, Paris, Hachette

والقصص، ومجموعات الخطابات والمقالات والعقود والمحاضر، ووصية رمسيس السياسية، كل ذلك قد أتاح للمؤلف مصدراً للوثائق متنوعاً وغزيراً. ومما لا شك فيه أنه قد قضى علينا أن نجهل بعض المظاهر لحياة الشعب، إذ يبدو مثلا أننا لن نستطيع أن نعرف أبداً الشعور الدينى للعامل أو للكاتب أو للكاهن المصرى. نعم إن بعض المراسم والطرق والمعتقدات معروفة، وقد استطاع جاك فانديه J. Vandier أن يكون منها مؤلفاً لا بأس به عن الدين المصرى[1] نرى فيه القيمة الحقة للعبادة المزدوجة، عبادة الشمس وأوزيريس. ولكنه لم يستطع هو ولا مونتيه أن يدلنا على العقيدة الفردية الحقة.

فلنرض بهذه المجموعة الضخمة من الوثائق التى جمعها وفسرها وعرضها علينا مؤلفيه، وما من أحد ينكر اليوم القيمة العظيمة لقدماء المصريين أو ينكر تنوع المواهب لدى فنانيهم المعماريين والمصورين والنحاتين. ولكنا لا ندرى بالضبط كيف كانت حياتهم هنيئة فى مجموعها. يقول مونتيه: «كان المصريون يكثرون من شكر الآلهة لأن حياتهم على ضفاف النيل كانت حياة هنيئة. ولنفس هذا السبب كانوا يحاولون التمتع بنعم هذه الدنيا حتى فى قبورهم». ومما لا شك فيه أن الفرعون كان بادى الشدة أحياناً، ومن المؤكد أن الكتاب كانوا يميلون إلى الضغط على أبناء الشعب وأن استعمال العصا كان كثيراً. ومن المؤكد أيضاً أن الكهنة كانوا يسيئون استخدام سلطتهم الدينية التى كانت تعطى لهم بسبب تأملاتهم الروحية (ولكن الفرعون نفسه كان يقاسى من ذلك أكثر مما يقاسيه النساج والزجاج). ومن المؤكد أن الفقراء كانوا طيلة الحياة، بعيدين عن مساواة الأغنياء حتى إذا ماتوا ألقى بجثثهم ولحمهم وأحشائهم الفانية فى المقبرة العامة: فلا هرم لهم، ولا خلود لهم. ولكن المصريين القدماء كانوا يعتنون بأجسامهم، يستحمون مرتين أوثلاثاً فى اليوم، وينتزعون الشعر من أجسادهم ويتطيبون، وكان الفلاحون والرعاة يغنون أثناء عملهم، أو يكلمون حيواناتهم وكانت البيرة والنبيذ تهبهم أوقاتاً سعيدة، كما كانت تسعدهم التمثيليات الدينية، ومواكب الآلهة. فكان عيد

(١) *La religion égyptienne*, Presses Universitaires, collection Mana, 1946

آمون فرصة لهم يتمتعون فيه بالأكل الوافر والشراب طيلة شهر بأكمله . «كلا لم يكن الشعب المصرى ، كما قال رينان ، قطيعاً من الرقيق يقوده فرعون قاس وكهنة شرهون متعصبون . لقد كان عدد الفقراء عظيما من غير شك أيام الرماسسة ولكن الفرعون وموظفوه كثيراً ما كانوا حكاماً رحيمين . وأظن أن الأيام الطيبة فى حياة الشعب كانت أكثر من الأيام السيئة » .

وكان آمون رع يقوم أحياناً بالمعجزات ليخفف عن الشعب آلام الأيام السيئة .

اسباميل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده .